بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة:

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي جَعَلَ الْعِلْمَ لِلْعُلَمَاءِ نَسَبًا ، وَأَغْنَاهُم بِهِ وَإِنْ عَدِمُوا مَـــالاً وَنَشَـبًا، وَلأَجْلِهِ سَجَدَتِ الْمَلائِكَةُ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَبِحِيلَةِ الْعِلْمِ أَتَكَأَ إِدْرِيسُ فِي الْجَنَّـــةِ وَاحْتَبَـــى وَلِطَلَبِهِ قَامَ الْكَلِيمُ وَيُوشَعُ وَانْتَصَبَا فَسَارَا إِلَى أَنْ لَقِيَا مِنْ مَفَرِهِمَا نَصَبًـــا وَصَلَّـــى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُجْتَبَى ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ.

وَبَعْدُ :

فَلَمْ يَتْرُكْ سيبويه لِلْمَكْتَبَةِ الْعَرَبِيَّةِ غَيْرَ مُصَنَّفٍ وَاحِدٍ جَمَـــعَ بَيْـــنَ دَفَّتَيْـــهِ كَـــلاَمَ الْعَرَبِ، أَلاَ وَهُوَ الْمُؤَلَّفُ الَّذِي اشْتُهِرَ بِاسْمِ (الْكِتَاب) وَنَالَ مِـــنَ الاِنْتِشَـــارِ وَالشُّـــهْرَةِ مَكَانَةً لَمْ يَنَلْهَا مُصَنَّفٌ آخَرُ، لِتَفَرُّدِهِ بِمَا حَوَى، حَتَّى سَمَّوْهُ (الْبَحْرَ) وَ (قُرْآنَ النَّحْوِ).

اِهْتَمَّ الْقُدَمَاءُ وَالْمُحْدَثُونَ بِالْكِتَابِ وَدَرَسُوهُ وَنَاقَشُوهُ وَذَكَرُوا آرَاءَهُم فِيـــهِ وَبَيَّنُـــوا قِيمَتَهُ وَأَثَرَهُ، وَلَمْ يَحْظَ أَيُّ كِتَابٍ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ بِمِثْلِ مَا حَظِيَ بِهِ كِتَابُ ســـيبويه مِـــن اهْتِمَامِ الدَّارِسِينَ وَالْمُعْنِيِّينَ وَالْمُتَتَبِّعِينَ عَلَى اخْتِلاَفِ اتِّجَاهَاتِهِم وَعُصُورِهِم إِذْ لَـــمْ يَمُرَّ عَصْرٌ مُنْذُ ظُهُورِهِ إِلاَّ وَنَجِدُ فِيهِ مَن دَرَسَهُ أَوْ كَتَبَ عَنْهُ، أَوْ شَـــرَحَهُ أَوْ شَـــرَحَ شَوَاهِدَهُ وَبَيَّنَ قِيمَتَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ.

وَالَّذِي يَتَعَامَلُ مَعَ كِتَابِ سيبويه يَجِدُ فِيهِ عُلُوماً كَثِيرَةً فَالْكِتَابُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَـــى النَّحْوِ وَالصَّرْفِ، بَلِ اشْتَمَلَ عَلَى أَصْوَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَفِيهِ مَبَاحِثُ بَلاَغِيَّةٌ تَشْـــتَمِلُ عَلَـــى أَبْحَاثٍ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ وَفِيهِ مَبَاحِثُ فِي الأَدَبِ وَالنَّقْدِ، وَفِيهِ مَبَـــاحِثُ فِي الْقِرَاءَاتِ وَالتَّجْوِيدِ وَفِيهِ مَبَاحِثُ فِي اللَّهَجَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، كَمَا فِيهِ مَبَاحِثُ فِـــي عِلْـــمِ الْعَرُوضِ وَالْقَوَافِي ظَلَّتْ بِمَنَأًى عَنْ أَيْدِي الدَّارِسِينَ، فَمَا امْتَدَّتْ إِلَيْهَا يَدُ الْبَحْثِ إِلَـــى وَقْتِ إِعْدَادِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ عَلَى كَثْرَةِ مَا كُتِبَ عَنْ سيبويه وَكِتَابِهِ.

وَالَّذِي يَبْدُو أَنَّ الْقَوْلَ الْقَائِلَ بِأَنَّ (الْكِتَابَ) كِتَابُ نَحْوٍ وَصَرْفٍ فَقَطْ، هُوَ مِن قَبِيلِ التَّغْلِيبِ وَإِلاَّ فَهُوَ الْبَحْرُ بِمَا عَلَيْهِ يَشْتَمِلُ وَمَا فِي بَطْنِهِ يَضُمُّ.

قَالَ الدُّكتور حَسَن عَون: ((إِنَّنَا نَظْلِمُ الْكِتَابَ حِينَمَا نَعْتَبِرُهُ كِتَاباً فِي النَّحْوِ، كَمَـــا إِنَّنَا نَظْلِمُ النَّحْوَ نَفْسَهُ حِينَمَا نَفْهَمُهُ بِذَلِكَ الْمَعْنَى الضَّيِّقِ الَّذِي يَتَعَارَفُ عَلَيْهِ النَّاسُ فِـــي عَصْرِنَا هَذَا .... فَكِتَابُ سيبويه يُمَثِّلُ النَّحْوَ فِي شَبَابِهِ الزَّاهِرِ، وَيَرْوِيهِ لَنَا فِي صُـــوَرِهِ الْخِصْبَةِ الأُولَىٰ))[1].

---

[1] المصطلح النحوي: ٧٩، نقلاً عن: أول كتاب في نحو العربية، البحث المنشـــور فـــي مجلـــة كليـــة الآداب بالإسكندرية مجلد: ١١، سنة ١٩٥٧، ص:٣٩.

لَقَد صَنَعَ سيبويه لِلنَّحوِ مَا لَم يَصنَعْهُ أَحَدٌ، حَتّى لَيُعَدّ بِحَقٍّ أُستَاذَهُ الأَوَّلَ وَإِمَامَـهُ المُقَدَّمَ، وَيُعَدُّ كِتَابهُ مِعيَارَ العَرَبِيَّةِ وَلَيسَ أَدلّ عَلى ذَلِكَ مِن كَثرَةِ مَن تَنَاوَلَهُ مِن أئمَّـةِ اللُّغَةِ وَأَعلَامِ العَرَبِيّةِ بِالبَحثِ والدَّرسِ وَالنَّقدِ وَالتَّأليفِ[1]، فَهُوَ كَنزٌ مِن كُنُوزِ العَرَبيَّـةِ، وَلَيسَ لِنَحوِيٍّ قَدِيمٍ أَوْ حَدِيثٍ كِتَابٌ يُجَارِي كِتَاب سيبويه أَوْ يُدانِيهِ، كَمَا شَـهِدَ بِذَلِـكَ القُدَمَاءُ مِن بَصرِيّينَ وَكُوفِيّينَ وَبَغدَادِيّينَ وَأَندَلُسِيّينَ[2] .

وَمَا يَزَالُ الكِتَابُ جَدِيداً عَلَى الرَّغمِ مِمَّا أُلِّفَ بَعدَهُ مِن كُتُبٍ وَأَسفَارٍ وَمَـا يَـزَالُ مَنبَعاً صَافِياً لِمَن يُرِيدُ دِرَاسَةَ النَّحوِ وَالصَّرفِ وَالأَصوَاتِ وَأُصُولِهَا، وَغَيرِهَـا مِـن عُلُومِ العَرَبِيَّةِ.

وَلَمَّا كَانَ كِتَابُ سيبويه قَدْ جَمَعَ وَحَوَى كُلَّ هَذِهِ العُلُومِ فَلَيسَ بِدْعَـاً ــ إِذاً ــ أَنْ يَضُمَّ إِلَيهَا إِشَارَاتٍ مُتَنَاثِرَةٍ فِي صَفَحَاتِهِ هنا وهناك من ألفاظ (التوسع) وما اشْـتُقَّ منـه لِيُدِلَّنَا عَلَى أَسَالِيبَ وَأَنمَاطِ الكَلَامِ العَرَبِيِّ شَرِيطَةَ أَنْ لَا تَخرُجَ عَـن سَـنَنِ العَرَبِيَّـةِ وَنِظَامِهَا .

وَقَد كُنتُ أُدِيمُ النَّظَرَ فِي كِتَابِ سيبويه أَتَأَمَّلُ نُصُوصَهُ فَيَقَعُ نَظَرِي عَلَى أَلفَـاظِ التَّوَسُّعِ فَلَا أَدرِي مَاذَا يُرِيدُ بِهَا صَاحِبُ الكِتَابِ وَلكنَّ حُبَّ النَّفـسِ المَجبُولَـةِ عَلَـى اسْتِكْشَافِ المَجْهُولِ دَعَتنِي إِلى مُلَازَمَةِ الكِتَابِ وَتَحلِيلِ نُصُوصِهِ مِن أَجلِ الوُصُـولِ إِلى سَبرِ أَغوَارِهِ، وَتَحدِيدِ مَفهُومِ التَّوَسُّعِ الَّذِي وُلِدَ فِي الكِتَابِ، وَمَا زَالَ عَائِماً ــ فِيمَا أَزعَمُ ــ إِلى يَومِنَا هَذَا .

وَكَانَ مِمَّا زَادَنِي إِصرَاراً عَلَى اخْتِيَارِ مَوضُوعٍ فِي كِتَابِ سيبويه؛ هُوَ تَجَـافِي الدَّارِسِينَ وَطَلَبَةِ العِلمِ: ((الْكِتَابَ)) ؛ وَحُجَّتُهُم فِي ذَلِكَ عُلُوُّ أُسلُوبِهِ وَصُعُوبَةُ أَلفَاظِـهِ لِأَنَّ سيبويه أَلَّفَ لِأُنَاسٍ كَانُوا يَأْلَفُونَ مِثْلَ هَذِهِ الأَلفَاظِ .

وَبَعْدَ أَنْ وَفَّقَنِي اللهُ وَسَجَّلْتُ المَوضُوعَ ؛ سَعَيْتُ بِرِسَالَتَيْنِ كُتِبَتَا فِي ((الاتِّسَـاعِ))، الأُولَى بِعُنوَانِ : الاتِّسَاعِ فِي العَرَبِيَّةِ، وَهِي رِسَالَةُ مَاجِستِيرٍ فِي جَامِعَـةِ البَصْـرَةِ، وَأُخرَى بِعُنوَانِ الاتِّسَاعِ فِي اللُّغَةِ عِنْدَ ابنِ جِنِّي وَهِي رِسَالَةُ دُكتـوراه فِـي جَامِعَـةِ المَوصِلِ.

---

[1] لمعرفة ما ألف حول الكتاب قديماً وحديثاً لنظر: سيبويه إمام النحاة، لكوركيس عواد.

[2] ينظر: الشاهد وأصول النحو ١١، وسيبويه حياته وكتابه ٦٦، وسيبويه هولمش وملاحظات حول سيرته وكتابه ٦٥ وما بعدها

وَوَقَفْتُ عَلَى الرِّسَالَتَيْنِ فَوَجَدْتُ الثَّانِيَةَ قَيِّمَةً، وَالأُولَى لَا قِيمَةَ لَهَا.

وَقَدْ كُنْتُ أَتَصَوَّرُ أَنَّ رِسَالَةَ الاتِّسَاعِ فِي العَرَبِيَّةِ سَتَأْتِي اسْمًا عَلَى مُسَمًّى؛ إِذْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ قَبْلَ رُؤْيَتِهَا أَنَّهَا نَخَلَتْ مَعْظَمَ كُتُبِ النَّحْوِ وَعَلَى رَأْسِهَا (كِتَاب سيبويه)، كَمَا ظَنَنْتُ أَنَّهَا تَصَدَّتْ لِجَمِيعِ كُتُبِ الضَّرَائِرِ الشِّعْرِيَّةِ، وَبَعْضِ كُتُبِ أُصُولِ النَّحْوِ الَّذِي كَانَ لِمُصْطَلَحِ السَّعَةِ وَمَا اشْتُقَّ مِنْهُ؛ جَوَلَانٌ وَدَوَرَانٌ فِي كُتُبِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ مَوْضُوعَ الرِّسَالَةِ يُوحِي بِذَلِكَ وَيَتَطَلَّبُهُ وَلَكِنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْصُلْ وَإِنَّمَا الَّذِي رَأَيْنَاهُ كَانَ خِلَافَ ذَلِكَ فَمَادَّتُهَا العِلْمِيَّةُ جَاءَتْ فِي مِائَةٍ وَعِشْرِينَ صَفْحَةً حَسْب، وَلَوْ أَنَّ البَاحِثَةَ دَرَسَتِ التَّوَسُّعَ فِي كُتُبِ الضَّرَائِرِ وَحْدَهَا أَوْ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ أُصُولِ النَّحْوِ وَلْيَكُنْ كِتَابَ الأُصُولِ فِي النَّحْوِ لِابْنِ السَّرَّاجِ لَجَاءَتْ بِرِسَالَةٍ تَرْبُو عَلَى أَضْعَافِ مَا جَاءَ فِي رِسَالَتِهَا فَضْلًا عَنْ أَنَّ مِثْلَ هَذَا المَوْضُوعِ يَنْبَغِي أَلَّا يُسَجَّلَ رِسَالَةَ مَاجِسْتِير ،فَيَقْتُلُ البَاحِثُ المَوْضُوعَ وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْدَرُ وَأَكْفَأُ عَلَى تَحَمُّلِ مِثْلِ هَذَا العِبءِ وَلَا سِيَّمَا وَأَنَّ دَوِيَّ رِسَالَةِ الاتِّسَاعِ فِي العَرَبِيَّةِ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَرَهَا كَادَ يَحْجُبُ كُلَّ مَوْضُوعٍ يُسَجَّلُ فِي التَّوَسُّعِ وَمِنْهَا رِسَالَتِي المَوْسُومَةُ بِـ(التَّوَسُّعِ فِي كِتَابِ سيبويه) ظَنًّا مِنْهُم أَنَّ السَّابِقَ لَمْ يَتْرُكْ لِلَّاحِقِ شَيْئًا يَسْتَأْهِلُ الدَّرْسَ.

وَلَعَلَّ مِنْ أَكْبَرِ المَآخِذِ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، هُوَ إِغْفَالُهَا جُهُودَ القُدَمَاءِ وَعَلَى رَأْسِهِم سيبويه، فَمَا زِلْتُ أَعْجَبُ مِمَّنْ يَتَصَدَّى لِمَوْضُوعٍ فِي العَرَبِيَّةِ وَيُغْفِلُ إِمَامَهَا.

أَمَّا رِسَالَةُ الاتِّسَاعِ فِي اللُّغَةِ عِنْدَ ابْنِ جِنِّي ، فَقَدْ أَفَدْنَا مِنْهَا وَمِنْ مَصَادِرِهَا، وَلَاسِيَّمَا مَصَادِرُ الأُسْلُوبِيَّةِ وَالنَّقْدِ الأَدَبِيِّ الحَدِيثِ وَلَنَا عَلَيْهَا أَنَّهَا كُتِبَتْ عَلَى مَا يُسَمِّيهِ التَّوَجُّهَاتُ.

أَمَّا مَصْدَرِي الأَوَّلُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، فَهُوَ كِتَاب سيبويه وَشُرُوحُهُ وَمَا كُتِبَ عَنْهُ، وَقَدِ اسْتَعْمَلْتُ فِي إِعْدَادِ هَذَا البَحْثِ ثَلَاثَ طَبَعَاتٍ مِنْ كِتَابِ سيبويه؛ طَبْعَةَ بُولَاق وَهِيَ أَصَحُّ الطَّبَعَاتِ المَوْجُودَةِ، وَطَبْعَةَ المُحَقِّقِ عَبْدِ السَّلَامِ مُحَمَّد هَارون، وَالأُخْرَى طَبْعَةَ إِمِيل بَدِيع يَعقوب ، فَرَمَزْتُ لِطَبْعَةِ بُولَاق بِالرَّمْزِ (ب) وَلِطَبْعَةِ هَارون بِالرَّمْزِ (هـ) وَاجْتَهَدْتُ فِي اسْتِحْدَاثِ رَمْزٍ خَاصٍّ بِي لِطَبْعَةِ إِمِيل بَدِيع يَعقوب رَمَزْتُهُ بِالرَّمْزِ (مِل) .

وَأَزْعمُ أَنِّي أَوَّلُ مِن اسْتَعْمَلَ ثَلاثَ طَبَعَاتٍ مِن كِتَابِ سيبويه فِي بَحْثٍ جَامِعِيٍّ.

وَبَعْد رِحْلَةٍ شَاقَّةٍ مُضْنِيَةٍ في كِتَابِ سيبويه وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ الْجَهْدُ مِنِّي مَا أَخَذَ مِن طُولِ التَّتَبُّعِ وَالاسْتِقْرَاءِ وَالصَّبْرِ وَالْجَلَدِ عَلى مُكَابَدَةِ الكِتَابِ وَاسْتِخْرَاجِ غَوِيصِهِ، وَكَشْفِ غَوَامِضِهِ، تَهَيَّأَ لِي مِن حَرَّاءِ ذَلِكَ، حَشْدٌ مِن مَسَائِلِ التَّوَسُّعِ في الكِتَابِ فَعَكَفْتُ عَلى دِرَاسَتِهَا وَتَصْنِيفِهَا، فَحَكَمْتُ طَرِيقَةُ الْبَحْثِ بِكِتَابَةِ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ يَقْفُوهَا تَمْهِيدٌ وَأَرْبَعَةُ فُصولٍ وَخَاتِمَةٌ.

أَمَّا التَّمهِيدُ فَقَد وَسَمْتُهُ بـ(التَّوَسُّعِ فِي الْعَرَبِيَّةِ) ، وَتَنَاوَلْتُ فِيهِ مَسَائِلَ مُهِمَّةً ابْتَدَأْتُهَا بِمُصْطَلَحِ التَّوَسُّعِ وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُ فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ، ثُمَّ شَرَحْتُ مَفْهُومَ التَّوَسُّعِ، وَمُسَوِّغَاتِهِ، وَمَوَانِعَهُ، وَمُسْتَوَيَاتِهِ ثُمَّ عَرَجْتُ عَلَى التَّوَسُّعِ فِي كُتُبِ أُصُولِ النَّحْوِ وَخَتَمْتُ التَّمْهِيدَ بِالتَّوَسُّعِ في كُتُبِ الضَّرائِرِ.

وَالَّذِي دَعَانِي إِلَى هَذا التَّقْسِيمِ في التَّمْهِيدِ، هُوَ رَغْبَتُنَا فِي أَنْ يَكُونَ مدخلاً صَالِحًا لِدِراسَةِ التَّوسع في الكتاب، إذ لا بُدَّ من وضوح الصُّورة أَمَام الباحث والدارس عن التوسع عموماً، ومن ثَمَّ الولوج الى مَا هو أصعب فهماً، وأبعد غوراً، ألا وهي مباحث التوسع عند سيبويه.

وتلي التمهيدَ الفصولُ:

ففي الفَصْلِ الأول تَناولتُ التَّوَسُّعَ في المستويين الصَّوتي، والصَّرفي، وقَدَّمتُ الفَصْلَ الصَّرفي عَلى الفصْلِ النَّحوي جَرْياً على عادة القُدَماءِ من تقديم الصَّرف على النَّحو. وقد قَسَّمتُ الفصل على مبحثين:

الأول : المستوى الصوتي، وتناولتُ فيه ثلاثَ ظَواهِرَ صَوتيَّة هي الإتباعُ الحَرَكيُّ ، والإمَالة ، والتَّغنيم .

والثاني: المستوى الصرفي ، وقد أَجْمَلتُ الكلامَ فيهِ عَلى مَبَاحِث التَّرادُف، والمُشْتَرك اللَّفظي ، والتَّذكير والتَّأنيث.

وَخَصَّصتُ الفَصْل الثاني لِدراسةِ التَّوسُّع في المُستوى النَّحوي فاحتوى الفَصْل أربعةَ مَباحث : التَّوسُّع في الظرف ، والتَّوسع في المَصادِر ، والتَّوسع في التَّراكيب، والأساليب والتَّوسع في الجار والمجرور.

أَمَّا الفَصْل الثالث : فَقَدْ اشْتَمَلَ عَلى التَّوسُّع في المُستوى البَلاغِيّ وانْطوت تَحْتَه ثَلاثة مَباحِث هي: عِلْم المَعاني ، وعِلْم البَيان ، وعِلْم البَديع.

أَمَّا الفَصْل الرابع : فَكَان آخِرَ فَصْل في هذهِ الرِّسالة وقد وَسَمتُه بالتَّوسُّع في العَروض والقَوافي، واقْتَضتْ طَبيعةُ هذا الفصل أنْ يُقسَّم عَلى ثَلاثةِ مَباحِث:

الأول: مُصْطَلحات العَروض والقَوافي، وَهو مَبْحَثٌ عَرَّفْتُ فيه بِبَعْض المُصْطَلحات العَروضية في كِتاب سيبويه وَبَعْض مُصطلحات القَافية ، وَقد عَمدتُ إلى تَصْدير الفَصْل العَروضي بِهذا المَبْحث، ليتَعَرَّف القارئ على أَنَّ (الكتاب) لم يَكُن غُفْلاً مِنَ المُصطلح العَروضي، وَمِن ثَمَّ يَلِجَ مباحثَ التَّوسع فيه؛ فعليه ــ إذاً ــ أنْ يتعَرَّفَ على المصطلح أولاً، ومِن ثَمَّ يدخل المبحث الثاني من هذا الفصل ليتعَرَّفَ مِن خِلالِه عَلى التَّوسع فيه ثانياً.

أما المبحث الثالث : فَاخترتُ له عُنوانَ التَّوسُّع والضَرورة الشعرية، تَناولتُ فِيهِ شيئاً عن مَفْهوم التَّوسُّع ، وتذكيراً بما جاءَ عنهَ في التَّمهيد ثم تكلمتُ على الضرورة الشِّعرية وعلى مَفهومِها عند سيبويه؛ إذْ بيَّنتُ رأيَه الذي يُوافِق الجُمْهور في مَفهوم الضرورة ومعناها ، ثم تناولتُ طائفةً مِن ضرائر الكتاب التي كان مَرَدُّها الى واحدٍ مِن أمرين: **أحدهما:** الضرائر الناتجة عن المشابهة بين شيئين.

والثاني : الرَّد إلى الأصل .

بعدها وقفت قليلا على ما لم يُفَسِّرْهُ سيبويه من الضرائر، وَخَتَمْتُ الفَصْل كُلَّه بِما حُمِلَ مِنَ التَّوسُّع عَلى الضَّرورة، ثم ختمتُ البحث بخاتمةٍ تَضمَّنَت أَبرَز النَّتائج وأهمّ التَّوصيات التي تَوصَّل إليها البَاحِث.

وفي الختام وقبلَ أنْ أَضَعَ القَلَم يطيبُ لِي أنْ أُقدِّم خالص شكري وتقديري إلى الكَلِمةِ الطيبة والخُلق الرَّفيع إلى الرَّجل الذي كَان وَرَاء هذا البحث توجيهاً وتقويماً، الى أستاذي القدير الأستاذ المساعد **الدكتور عبد الرسول سلمان الزيدي** لما أبداهُ من مُلاحظاتٍ وتُوجيهَاتٍ قيِّمة أنتفعَ بها البحثُ والبَاحِث، فأدعو الله سبحانه أنْ يَحفَظَهُ مِن نَوائِب الزَّمان وَطوارِق الأيام إنَّه سَميعٌ مُجيب.